

دلائل الإعجاز

" كادَ " على هذا السبيلِ تَوَهَّـمَ ابنُ شُبْرَمَةَ أنَّـه إِذَا قال : لم يكـدْ رسيـسُ الهوى من حُبِّـي مَيِّـةً يبرحُ فقد زعمَ أن الهوى قد بَرَحَ ووقعَ لذي الرُّـمَّةِ مثلُ هذا الظنِّ . وليس الأمرُ كالذي ظنَّاه فإنَّـ الذي يقتضيه اللفظُ إِذَا قيلَ : لم يكـد يفعلُ وما كادَ يفعلُ أنْ يكونَ المرادُ أنَّـ الفعلَ لم يكن من أصله ولا قاربَ أن يكونَ ولا ظنَّ أنَّـه يكونَ . وكيفَ بالشكِّ في ذلك وقد عَـلَمنا أنَّـ " كادَ " موضوعٌ لأنْ يَدُلَّـ على شِدَّةِ قَربِ الفعلِ من الوقوعِ وعلى أنه قد شارفَ الوجودَ . وإِذَا كان كذلك كان مُحالاً أنْ يوجبَ نفيهُ وجُودَ الفعلِ لأنه يؤدي إلى أنْ يوجبَ نفيَ مقاربةِ الفعلِ الوجودَ وأنْ يكونَ قولُك : ما قاربَ أنْ يفعلَ : مقتضياً على البتِّ أنه قد فعلَ .

وَإِذْ قد ثَبَتَـ ذلكَ فمن سبيلِكَ أنْ تنظرُ فمتى لم يكنِ المعنى على أنه قد كانَ هناك صورةٌ تقتضي أنَّ لا يكونَ الفعلُ وحالُ يَدْعُدُ معها أنْ يكونَ ثُمَّ تَغْيِرُ الأمرُ كالذي تراهُ في قوله تعالى : (فَذَبْحُوهَا وما كادُوا يَفْعَلُونَ) فليس إِلا أنْ تُلْزِمَ الظاهرَ وتجعلَ المعنى على أنك ترعُمُ أنْ الفعلَ لم يقاربَ أنْ يكونَ فضلاً عن أنْ يكونَ فالمعنى إِذَاً في بيت ذي الرمة على أنَّ الهوى من رسوخه في القلبِ وثبوته فيه وغلبته على طباعه بحيثُ لا يُتَوَهَّمُ عليه البَرَّاحُ وأنْ ذلكَ لا يقاربُ منه أنْ يكونَ فضلاً عن أنَّ يكونَ كما تقولُ : إِذَا سَلَـا المحبونَ وفَتَحُوا في محبَّتِهِم لم يَقَعْ لي وَهْمٌ ولم يَجْرَـ مني على بالٍ أنه يجوزُ عليَّ ما يُشبهُ السَّـلوةَ ما يُعَدُّ فترةً فضلاً عن أنَّ يوجدَ ذلكَ مني وأصيرَ إِليه . وينبغي أنْ تعلمَ أنَّـ هُمُ إِنما قالوا في التفسيرِ : لم يَرَهَا ولم يَكَدْ فبدؤوا فنَفَّـوا الرُّـيَّةَ ثم عَطَفُوا " لم يَكَدْ " عليه ليُعْلِمُوكَ أنَّـ ليس سبيلُ " لم يكـد " ها هُنَا سبيلَ " ما كادوا " في قوله تعالى : (فَذَبْحُوهَا وما كادوا يَفْعَلُونَ) في أنه زَفِيٌّ معقَّبٌ على إثباتِ وأنْ ليس المعنى على أنَّ رُـيَّةً كانت من بَعْدِ أنْ كادتْ لا تكونَ ولكنَّ المعنى على أنَّ رُـيَّةً لا تقاربُ أنَّ تكونَ فضلاً عن أنْ تكونَ . ولو كان " لم يكـد " يوجبُ وجودَ الفعلِ لكان هذا الكلامُ منهم مُحالاً جارياً مَجْرَى أنْ تقولَ : لم يَرَهَا ورآها . فاعرفْهُ .

وها هُنَا نكتةٌ وهي أنَّـ " لم يكـد " في الآيةِ والبيتِ واقعٌ في جوابِ " إِذَا " والماضي إِذَا وقعَ في جوابِ الشرطِ على هذا السبيلِ كان مُستقبلاً في المعنى فَإِذَا قلتَ : إِذَا خرجتَ لم أخرج كنتَ قد نفيتَ خروجاً فيما يُسْتَقْبَلُ . وَإِذَا كان الأمرُ كذلكَ

استحالَ أن يكونَ المعنى